الجامعة المستنصرية
قسم التاريخ
اسم المادة : تاريخ دولة المماليك في مصر .
اسم تدرسي المادة : أ.د. عفاف عبد الجبار عبد الحميد + أ.د. حسين علي قيس .
المرحلة : الرابعة – الدراسة المسائية
العام الدراسي : 2023 – 2024
المحاضرة رقم (9)

السلطان الأشرف قايتباي(٨٧٢–٩٠١ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م)

يعتبر السلطان قايتباي (٨٧٢–٩٠١هـ/ 1468 – 1496 م) من ابرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لانه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرون عاما ، وهي مدة لم يحكمها احد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وفي تلك المدة اثبت السلطان الأشرف قايتباي انه امهر السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشؤون الادارة ، واكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة ، وعلى الرغم من تعسفه في جمع الاموال وفرض الضرائب ، الا ان آثاره ومنشآته العديدة اثبتت أنه كان ينفق تلك الاموال في المنشآت العامة أو في حروبه الواسعة . فيعد مسجد قايتباي بالقاهرة والوكالات التي شيدها من اجمل المباني العربية في ذلك العصر كما انه حرص عل ترميم واصلاح المنشآت التي أقامها اسلافه ، كما تشهد على ذلك الكتابات العديدة المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلعة وغيرها .

وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والاسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر اضافة الى ذهابه للحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان اينما ذهب يخلد اسمه بانشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحصينات وغيرها من الاعمال الخيرية والمرافق العمرانية . بيد ان هنالك مهمة أكبر بكثير من الانشاء والتعمير واجهت قايتباي وهي عدم استقرار الاوضاع على الحدود لشمالية التي سببت مصاعب جمة لسلاطين المماليك الجراكسة ففي النصف الثاني من القرن التاسع لهجري/ الخامس عشر الميلادي لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات لتي قام بها التركمان ، وإنما ادت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات الى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين ذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة 856هـ/ 1453 م .

أما احوال مصر الداخلية في اواخر عهد السلطان قايتباي فقد امتازت باستمرار فرض الضرائب وجمع موال من اجل تمويل الحروب ، هذا فضلا عن انتشار الوباء انتشارا فتاكا سنة٨٩٦هـ/ ١٤٩٢ م، حتى انه ان يموت في القاهرة في اليوم الواحد اكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك فضلا عن زوجة السلطان قايتباي و ابنته وتلى انتشار الوباء انتشار القحط الشديد وطاعون المواشي مما ى الى ندرة القوت وغلاء الاسعار في الوقت الذي كان فيه امراء المماليك غير مبالين بهذه الاوضاع نشغلين بخلافاتهم ومنازعاتهم الشخصية كما حصل سنة 900هـ/ 1495 م.

وأخيرا ساعت صحة السلطان قايتباي بعد ان جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفي في اليوم التالي مباشرة سنة 901هـ / 1496م .

ثم تولى الحكم محمد بن قايتباي(ذي الحجة 901 هـ - ربيع الاول 904 هـ 1496-1499م) ، ون بعده قانصوه بن قانصوة الاشرقي (٩٠٤ هـ - ٩٠٥ هـ) ، ثم الاشرف جانبلاط الاشرفي ومدة حكمه 6 أشهر و١٨ يوم من سنة 905 هـ / 1500م ثم طومان باي الاشرفي بن قانصوة (3 أشهر و أيام)

السلطان الأشرف قانصوه الغوري

(٩٠٦-٩٢٢ ١٥٠١ - ١٥١٦ م) :

1- تمكن السلطان قانصوه الغوري من ان يثبت بانه رجل قوي وصلب رغم تجاوزه للستين من عمره فعندما ولي منصب السلطنة عمل بسرعة على اعادة النظام والاستقرار الى العاصمة .

2- وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه الى علاج الأزمة المالية المستحكمة التي كانت تعانيها خزانة الدولة المفلسة. وقد اتبع السلطان الغوري لانعاش الخزانة العامة سياسة تعسفية لم يسبقه اليها احد من سلاطين المماليك.

3- قام بجمع ضرائب ومكوس عشرة اشهر مقدما ودفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الاراضي والحوانيت والعقارات .

4- و انما تجاوز ذلك الى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، وحتى الاوقاف الخيرية كما ضاعف الرسوم الكمركية ،وتلاعب بالعملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين قيمة العملتين .

5- مما أضر بالتجار ضررا بليغا ولكن السلطان الغوري نجح في تحقيق أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ولكن على حساب الشعب الذي ازدادت حالته سوءا بسبب قسوة الضرائب الباهضة .

6- قام السلطان الغوري بانفاق الاموال التي جمعها على مماليكه فأكثر من أعدادهم عن طريق الشراء انفق القسم الآخر منها على منشاته العمرانية فشيد المسجد والمدرسة في الحي الذي سمي بعد ذلك بأسمه ، وهو حي الغورية .

7- كذلك عنى السلطان الغوري بطريق الحج ، فأقام به الكثير من الاستراحات والآبار. هذا فضلا عن حفر بعض الترع وتحصين الاسكندرية ورشيد .

8- اصلاح القلعة كما عرف عن السلطان الغوري عنايته الكبيرة بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت مماليكه وخيوله ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمتهم من شعراء وادباء وعلماء .

9- اتسمت الفترة الاولى من حكمه بالهدوء النسبي فلم تقم ضده حركات معارضة الا اذا استثنينا بعض الثورات من جانب المماليك الجلبان والعربان .

10- أما على الصعيد الخارجي فكان الخطر الكبير الذي هدد مصالح البلاد في القسم الاول من حكم السلطان الغوري آتيا من ناحية البحر الأحمر.

11- ذلك ان فاسكو دي كاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٢/ ١٤٩٧م ، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا(الهند) سنة 905هـ/ ١٥٠٠م ، مما هدد مركز مصر الاقتصادي كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوربي ، وأذن بانتقال زمام التجارة من أيدي المماليك الى البرتغاليين. وإزاء هذا الخطر الجسيم ، استنجد

امراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغوري ، الذي رأى في الخطر الجديد تهديدا مباشرا للمورد الأساسي الذي اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها.

12- وقد لجأ الغوري في البداية للاساليب الدبلوماسية فوجه نداء الى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والاسبان من التعرض بسوء للمسلمين في الشرق والغرب. ويبدوا ان القوى الاوربية لم تتأثر بذلك التهديد مما اضطر السلطان الغوري لان يشيد اسطولا جديدا في البحر الاحمر لمواجهة البرتغالين .

13- والتقى الجيشيان في معركتين بحريتين الأولى سنة 913هـ / ١٥٠٨م انتهت بانتصار المماليك والثانية سنة 914هـ/ 1509م تمكن فيها البرتغاليين من الثار لهزيمتهم من المماليك و انتصروا عليهم في موقعة ديو الشهيرة التي خسر على اثرها المماليك نفوذهم في الهند .

14- ثم قام البرتغاليين بالهجوم على عدن سنة 918هـ/ 1513م وتكررت هجماتهم عليها وعلى جزر البحر الاحمر فكان من نتائج ذلك خسارة دولة المماليك مكانتها الاقتصادية كوسيط للتجارة بين الشرق والغرب وظهرت آثار ذلك بشكل واضح على أوضاعها الاقتصادية التي بدات تسير نحو الانهيار.

15- على انه اذا كان الخطر البرتغالي قد ترتب عليه اضرار بالاقتصاد المملوكي فان ثمة خطر خارجي آخر تفاقم في أواخر عهد السلطان الغوري وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعني بهذا الخطر الجديد ، خطر الدولة العثمانية .